الفصل الخامس عشر

العدوى البرتقالية

في ليلة 5 سبتمبر/أيلول 2004م، بعد خطاب بوتين عن بيسلان، ذهب فيكتور يوشينكو خلسة لإجراء مقابلة حصرية في المنزل الريفي المُسَوَّر خارج كييف. كان يوشينكو يُرشِّح نفسه للرئاسة في أوكرانيا، وكان متأكدًا أن شخصًا ما يحاول قتله. في تلك الليلة رافقه مدير الحملة الانتخابية، لا حراسه الشخصيون، والتقى إيجور سميشكو، رئيس جهاز أمن الدولة في أوكرانيا، أو إدارة أمن الدولة (SBU) الخاصة بأوكرانيا، التي كانت نسخة عن الـ(كي جي بي)، وفضَّل سميشكو ألا يكون معهما أحد، وكان المضيف نائب سميشكو، وفلاديمير ساتسيوك الذي أعد وجبة منتصف الليل من سمك الكرو المغلي، والسلطة المغسولة بالبيرة، ثم في وقت لاحق حلوى الفاكهة مع أكواب من الفودكا والكونياك[1]. لا شيء يبدو ناقصًا، وبعد أن التقط يوشينكو صورة مع المسؤولَين الأمنيين الاثنين، غادر في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

في وقت لاحق من اليوم التالي بدأ يشعر بالمرض؛ فشعر بألم في رأسه، ثم في عموده الفقري، وازدادت الأعراض سوءًا في الأيام التالية، وسرعان ما تشوَّه وجهه الوسيم بعد اندلاع الخراجات، ثم من فرط الألم سافر إلى النمسا يوم 10 سبتمبر/أيلول لتلقي العلاج، خوفًا من المستشفيات الأوكرانية. بعد الحيرة في أعراضه التي استغرقت أسابيع، خلص الأطباء في نهاية المطاف إلى أن هناك شيئًا ابتلعه، ويفترض أنه كان في وقت متأخر من

عشاء تلك الليلة، وكان واحدة من أعلى الجرعات التي سجلت على الإطلاق في الإنسان من مُركَّب شديد السمية، ومعروف باسم 2، 3، 7، 8 – رباعي الكلور – P – الديوكسين، أو TCDD.

كان من المقرر أن تجري الانتخابات الرئاسية في أوكرانيا في 31 أكتوبر/تشرين الأول 2004م، والفائز سيحل محل الرئيس في العقد الماضي، ليونيد كوتشما، وهو المنضبط الذي كان قد انتخب مصلحًا في عام 1994م، إلا أن تحوله الاستبدادي والفاسد على نحو متزايد أدى إلى تعثر أوكرانيا خلال انتقالها إلى الديموقراطية والرأسمالية. شهدت البلاد الفوضى والفساد والفقر والإجرام نفسه الذي كان في روسيا، ولكن مع فارق حاسم هناك؛ فبالنسبة إلى كثير من الأوكرانيين لم يكن انهيار الاتحاد السوفييتي كارثة بل تحرير، وإعادة ولادة من الاستقلال عن موسكو التي لم تجربها إلا مدة وجيزة في سنوات الفوضى التي أعقبت الثورة البلشفية في عام 1917م، مع ما يقرب من ثمانية أربعين مليون نسمة في عام 2004م.

كانت أوكرانيا ثاني أكبر جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق وأهمها، وهي معقل الزراعة والصناعة التي دمرتها الحرب الأهلية، والسياسات الجماعية لجوزيف ستالين، التي تسبب في المجاعة، ثم قبل الحرب الوطنية العظمى احتلها ودمرها النازيون، ثم استولت عليها مرة أخرى جيوش التحرير السوفييتية، ففقدت أوكرانيا من جراء ذلك أكثر من ثلاثة ملايين شخص خلال الحرب، وأكثر من سدس سكانها في ذلك الوقت، مخلفة ندوبًا عميقة بها.

الأمة الأوكرانية- الهوية الوطنية- ظلت واهية؛ فقد كانت مقسمة جغرافيًّا وعرقيًّا بين الأوكرانيين والروس، فضلًا عن أمور أخرى، وجمعت بين أولئك الذين اعتنقوا التحرير الذي جاء مع انهيار الاتحاد السوفييتي، وأولئك الذين أسفوا على زواله، فالأوكرانيون كانوا قريبين من روسيا تاريخيًّا وثقافيًّا، ولكن سرت فيها الروح القومية، التي ظهرت في السنوات الأولى من استقلال البلاد صورتُها في الجمهوريات السابقة مثل ليتوانيا ولاتفيا وأستونيا، التي عانت من خمسة عقود من الاحتلال السوفييتي وأصبحت الآن جزءًا من حلف شمال الأطلسي

والاتحاد الأوروبي. فاعتمدوا الرموز والأسماء الأوكرانية للمدن، ومن ضمن ذلك العاصمة، التي كانت تدعى في روسيا كما كييف (Kiev) عدة قرون، ولكنها عادت في الاستقلال للنمط الأوكراني، كييف (Kyiv).

طوال رئاسته حاول كوتشما أن يوازن بين روسيا من جهة والاتحاد الأوروبي ومنظمة حلف شمال الأطلسي من جهة أخرى، فاحتفظت حكومته بالعلاقات الاقتصادية والدبلوماسية الوثيقة مع روسيا، ولكنها أرسلت أيضًا القوات الأوكرانية إلى العراق لتكون جزءًا من التحالف الذي يقوده الأمريكيون حتى ذلك الوقت الذي يكافح من أجل إعادة النظام بعد الإطاحة بصدام حسين. ومثل البلد نفسه، كان يبدو في صراع يتنازعه، وكان في نظر عدد من نقاده ببساطة يفتقر إلى الحزم؛ كان كليبتوقراط بدافع الجشع والسلطة، وبفضل القلة الأوليغارشية في البلاد، ولكنه لم يكن يملك الإرادة أو القدرة السياسة التي كان عليها بوتين، بسبب الانقسامات في البلاد التي تضمنت مراكز القوى المتنافسة، وكانت القلة في البلاد متعددة الولاءات والطموحات، ومن ثم لم يخضعوا تمامًا. وبينما كان بوتين قد روَّض حكومة القلة في روسيا، كانوا في أوكرانيا ما يزالون يوجهون دعمهم- والدعم النقدي الفوري أيضًا- للفصائل السياسية المختلفة، اعتمادًا على المصالح المالية لهم.

كانت الديموقراطية في أوكرانيا غير ناضجة، وجامحة، وفي بعض الأحيان مفرغة، وليس فيها رجل واحد يهيمن على الحياة السياسية في البلاد، وكان معارضو كوتشما يتمتعون بدعم شبكة التلفاز؛ القناة 5، التي ظلت حرة من سيطرة الدولة، وتسمح بمجموعة متنوعة من الأخبار والآراء التي تعزز النقاش السياسي. وعندما تورط كوتشما في قتل الصحفي البارز جورجي غونغادزه، لم يعد يمكنه بسهولة قمع الاحتجاجات المناهضة التي اندلعت ضد الحكومة، ولا يمكنه منع أعضاء المعارضة في البرلمان من المطالبة بفتح تحقيق. ففي عام 2000م عثر على جثة غونغادزه مقطوعة الرأس في غابة خارج كييف، بعد أشهر فقط من تأسيسه لصحيفة التحقيق على الإنترنت التي أغضبت الدائرة الداخلية لكوتشما بتقاريرها الظريفة الطابع عن الفساد، ومن خلال المحادثات المسجلة سرًّا في مكتب كوتشما ضُبط

متلبسًا يهاجم تقارير غونغادزه الصحفية ويحث مساعديه للتعامل معه[2]. نفى كوتشما أن يكون أمر بقتله، ولكن حياته السياسية باتت في حالة تدهور، وخشي كثيرون من أن يسعى في ولايته الثانية في نهاية عام 2004م إلى تعديل الدستور لتمديد حكمه، ولكن في نهاية المطاف لم يكن أمام كوتشما أي خيار سوى التنحي.

وخلافًا للانتخابات البرلمانية والرئاسية الفاترة في روسيا في عامي 2003م و2004م، ظلت في أوكرانيا حماسية، حامية الوطيس، ونتائجها غير مؤكدة. تتبع بوتين السياسة في أوكرانيا من كثب، ووجدها مثيرة للقلق؛ فازدياد تضاؤل مصداقية كوتشما يجعل من فوز المعارضة ممكنًا جدًّا، وكان بوتين قد شاهد بالفعل جمهورية أخرى سوفييتية في السابق، كجورجيا، تقع فريسة لذلك، عقب انتفاضة ديموقراطية شعبية بعد انتخابات متنازع عليها في عام 2003م.

كان بلدًا صغيرًا، مكونًا من خمسة ملايين شخص، على الحدود الجنوبية لروسيا الجديدة، وهو العمود الفقري في منطقة القفقاز، وكان رئيسُ البلاد هو إدوارد شيفاردنادزه، الذي كان وزير الخارجية السابق للاتحاد السوفييتي، والمستشار المقرب من ميخائيل جورباتشوف، والرجل الملام كثيرًا في روسيا على الانهيار الذي أعقب البيروسترويكا. عاد شيفرنادزه لجمهوريته الأم، وواجه عقبات في السلطة بعد الولادة العنيفة لجورجيا لتصبح دولة مستقلة، بعد أن أنهكتها الحروب وتحريض المقاتلين الروس، الذي أنشأ منطقتي أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية داخل الحدود المعترف بها دوليًّا في البلاد.

بعد أن زُورت الانتخابات البرلمانية في جورجيا في نوفمبر/تشرين الثاني عام 2003م، هرع الآلاف إلى الشوارع للاحتجاج، وكان لديهم التدريب والمال من المنظمات الدولية التي يمولها جورج سوروس والكونغرس في الولايات المتحدة، فضلًا عن أمور أخرى، وعندما حاول شيفاردنادزه تثبيت البرلمان الجديد في 22 نوفمبر/تشرين الثاني اقتحم المتظاهرون المبنى، بقيادة زعيم المعارضة ميخائيل ساكاشفيلي. وكان شيفاردنادزه قد ناشد الكرملين

للحصول على المساعدة، واتصل هاتفيًّا ببوتين في تلك الليلة حيث كان هذا الأخير يتناول العشاء مع كبار مستشاريه في واحد من المطاعم الجورجية الأكثر شهرة في موسكو[3]. فأمر بوتين وزير خارجيته إيجور إيفانوف بالتوجه إلى تبليسي، عاصمة جورجيا، للتوسط، ولكن مع تعليمات واضحة بعدم السماح للغوغاء بإسقاط رئيس منتخب للبلاد، وفي النهاية أخفق إيفانوف وشيفاردنادزه في فهم مستوى الدعم الذي كان من موسكو، واستقال من منصبه.

(الثورة الوردية)، كما أصبحت معروفة، دفعت ساكاشفيلي إلى السلطة، وأعقب الانتخابات البرلمانية انتخابه رئيسًا للبلاد في يناير/كانون الثاني 2004م. ساكاشفيلي يعد نفسه بوتين جورجيا، وهو زعيم قوي العزم وقد قرر استعادة الاستقرار في البلاد. وكان من أوائل الأعمال التي مارسها في منصبه أن توجه إلى موسكو للقاء بوتين؛ متزلفًا له على أنه ملهمه سياسي، ولكن بوتين، مع ذلك، كان مصابًا بالذعر من الإطاحة بشيفاردنادزه والتوجهات التغريبية لساكاشفيلي، ومن فقد كان رده على تملق شيفاردنادزه خطبة عصماء عن الدول السابقة في حلف وارسو التي أصبحت «عبيدًا لأمريكا»[4].

علاقات جورجيا بروسيا تدهورت من حينها، وبالنسبة إلى بوتين فإن أوكرانيا أهم منها بكثير؛ فجورجيا دولة هشة، ولم تكن تمثل خطرًا كبيرًا على نفوذ موسكو، أما أوكرانيا فكانت تربطها بروسيا وبوتين الروابط العرقية والثقافية والاقتصادية العميقة. وكان هذا الجذر التاريخي لروسيا نفسها: روس كييف، إقطاعية القرون الوسطى التي كان زعيمها فلاديمير الكبير، الذي اعتمد المسيحية في عام 988م، وحدود الإمبراطوريات القيصرية التي تلت- اسمها يترجم حرفيًّا مثل أوكرانيا، أو (الحدود)- وحدودها تحولت مع مرور الوقت: أجزاء من أراضيها الغربية تنتمي إلى بولندا أو الإمبراطورية النمساوية-المجرية. استولى ستالين على بعض منها باتفاق سري له مع هتلر في عام 1939م، والباقي بعد انتهاء الحرب الوطنية العظمى.

أوكرانيا الحديثة رسمت حدودها النهائية، ولكن يبدو أنها ستكون سريعة التغير، تخضع لقوى أكبر من الجغرافيا السياسية، كما كانت معظم المناطق الحدودية على مر التاريخ. في عام 1954م، صدر مرسوم نيكيتا خروتشوف أن شبه جزيرة القرم، التي غزتها كاترين العظمى في القرن الثامن عشر، ودافعت ببسالة ضد النازيين، ستكون محكومة من أوكرانيا السوفييتية، الجمهورية الأوكرانية الاشتراكية من كييف، وليس من موسكو، ولم يتصور أحد بعد ذلك- ولا حتى بوتين الذي كان يقضي شهر العسل هناك بعد ما يقرب من عقدين من زمن القرار- أنهما ستكونان منفصلتين إحداهما عن الأخرى، أوكرانيا والقرم. وحتى الآن، في عام 2004م، بدا حدثًا تاريخيًّا أن بوتين، مثل معظم الروس، سوف يتحمل ما دام أن أوكرانيا الجديدة تقع في الأحضان الجيوسياسية لروسيا.

في يوليو/تموز 2004م، قبل ثلاثة أشهر من إجراء الانتخابات الرئاسية في أوكرانيا، توجه بوتين إلى شبه جزيرة القرم للقاء كوتشما، وفيكتور يانوكوفيتش الذي كان رئيس الوزراء بعد كوتشما منذ عام 2002م، والذي حل محله رجل يعمل الآن باسم مرشح المعارضة الرئيس، فيكتور يوشينكو. على الرغم من تحفظات بوتين، الذي لم يعده أفضل المرشحين[5]، كان كوتشما يعد يانوكوفيتش رئيسًا وريثًا له سياسيًّا. وكان اجتماعهم مع بوتين ذلك الشهر، يوليو/تموز، في يالطا بقصر ليفاديا؛ ذلك المبنى الذي اقتسم فيه المنتصرون في الحرب الوطنية العظمى غنائم النصر، التي سرعان ما أصبحت تدعى بأوروبا المحررة.

بوتين، أيضًا، كان في ذهنه (مناطق نفوذ) في ذلك الصيف، وبقدر ما يشعر بالقلق، بقيت أوكرانيا في روسيا. ضغط بوتين على كوتشما لإنهاء تقرب حكومته من الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي، الذي أصبح اليوم مكروهًا في روسيا، لا سيما أنه قد تسلل أكثر فأكثر شرقًا، وكان قبل أشهر فقط، في مارس/آذار، قد زاد عدد الدول الأعضاء فيه من 19 إلى 26، واعترف لا ببلغاريا، وسلوفاكيا، وسلوفينيا، ورومانيا في أوروبا الشرقية فقط، بل وبثلاث جمهوريات من الاتحاد السوفييتي السابق: ليتوانيا، ولاتفيا، وأستونيا، وكل واحدة منها كانت موطنًا لعدد كبير من سكانها الروس.

قبِل معظم المسؤولين الأمريكيين والأوروبيين ما جاء في بندٍ يؤكد الثقة بأن توسعة الناتو ستعزز أمن القارة عن طريق حلف جماعي دفاعي من الديموقراطيات، كما أن الاتحاد الأوروبي دفن عددًا من الدوافع القومية التي سببت كثيرًا من الصراعات في القرون السابقة، وكان بوتين قد وافق على مضض على خطط حلف شمال الأطلسي في التوسع، ولكن اليوم يبدو أن حلف شمال الأطلسي ينظر إلى أوكرانيا.

ومثله مثل كثيرين من المؤسسات الأمنية الروسية، فقد دُرِّب على التخريب، حتى لو تطلب الأمر محاربة منظمة حلف شمال الأطلسي، ولكنه كان يكبت شعوره بالعداء. وكثيرًا ما أشار المسؤولون إلى تطمينات يعتقد أن ميخائيل جورباتشوف تلقاها خلال توحيد ألمانيا بعد عام 1989م؛ بأن الناتو لن يتوسع ليشمل الشرق (على الرغم من أن زعماء الولايات المتحدة وأوروبا أصروا على أنه لا يوجد مثل هذه التطمينات بتاتًا). كان مهينًا جدًّا أن تنضم دول البلطيق إلى منظمة حلف شمال الأطلسي، لكن المسؤولين الأمريكيين والأوروبيين باتوا اليوم يدعون صراحة لإدراج مزيد من الجمهوريات السوفييتية السابقة، ومن ضمنها جورجيا وأوكرانيا. «إن وجود الجنود الأمريكيين على حدودنا قد خلق نوعًا من الارتياب لدى روسيا»، قال وزير الخارجية الجديد لبوتين، سيرجي لافروف، مُقِرًّا، وذلك في أبريل/نيسان 2004م، عندما رفعت أعلام الدول الجديدة الأعضاء المنضمة إلى الناتو، في الاحتفالية التي أقيمت في مكان خارج مقر الحلف في بروكسل. في الواقع لم يكن هناك أي أمريكيين منتشرين في دول البلطيق، غير سرب من الطائرات المقاتلة الأوروبية التي تنفذ دوريات في سماء مناطق جديدة، ولكن هذا كان بالنسبة إلى بوتين يعني أن العدو قد وصل إلى أبوابه، وكان لا بد لهم من التوقف، وقد رسم بوتين الخط الأحمر لهم في أوكرانيا.

في يالطا، ناقش هووكوتشما التكامل، واقترح الفضاء الاقتصادي المشترك، وهو تحالف اقتصادي فضفاض بين روسيا وأوكرانيا، جنبًا إلى جنب مع بيلاروس وكازاخستان، وعلى مدى سنوات يتخذ صورة اتحاد جمركي أكثر رسمية، وينتهي باتحاد اقتصادي وسياسي ككتلة ترمي إلى منافسة الاتحاد الأوروبي. كان بوتين قد طرح الفكرة في العام قبل الماضي، ولكنه

الآن يريد التأييد العلني الصريح من كوتشما لذلك، وهذا يعني عكس الإستراتيجية الرسمية التي نشرتها حكومة كوتشما قبل شهر، وتدعو بها أوكرانيا لمتابعة العضوية في الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي. ولما كان يحتاج إلى دعم روسيا في مواجهة ما كان يرسَم في انتخابات الرئاسة الوشيكة لخلفائه، التي يمكن أن تقدم رئيسًا ذا أرضية أمنية بعد تركه منصبه، استسلم كوتشما لضغوط بوتين. وبعد لقائهما أعلن أنه قد تخلى عن الإستراتيجية التي أعلنها، وسيسعى فقط لعلاقات ودية مع التحالفات التي سادت أوروبا، وهو انعكاس مفاجئ بالنسبة إلى المعارضة الأوكرانية.

وراء الأبواب المغلقة، عقد بوتين وكوتشما صفقة جانبية، وأنشأا شركة تجارية جديدة للطاقة[6]. وأدرجت باختصار غير عملي باسم **روس أوكرانيرجو**، وبقيت ملكيتها غامضة عمدًا. كان نصفها مملوكًا لفرع من شركة غازبروم التي تحتكر الغاز في روسيا، والتي أصبحت على نحو متزايد جزءًا من رؤية بوتين لروسيا أكبر، والتي يسيطر عليها الكرملين بقيادة أقرب حلفائه من بطرسبورغ، وكانت ملكية النصف الآخر لشركة غامضة لشركاء بقوا سريين، وحصتهم تدار من قبل أحد المصارف النمساوية، رايفايزن الدولي، ولم تسجَّل الشركة الجديدة لا في روسيا ولا في أوكرانيا، وإنما في سويسرا[7]. هذه الصفقة الغامضة تعكس حجم قلق بوتين من الانتخابات التي تلوح في الأفق في أوكرانيا، وقد امتد إلى أبعد من السياسة وحدها، إذ كانت المخاوف المالية ذات أهمية كبيرة في حساباته؛ فقد أصبح الغاز الطبيعي- أكثر من النفط- أداة قوة لروسيا في السياسة الخارجية الروسية، فالصفقات النفطية تجري بحرية، وتخاض من خلال الاقتصاد في العالم، أما الغاز فيتطلب أنابيب ثابتة تربط دول أوروبا بروسيا، وشبكة خطوط الأنابيب التي يرجع تاريخها إلى العهد السوفييتي منحت روسيا النفوذ، ومع ارتفاع أسعار الطاقة أصبح قريبًا احتمال تحصيل الثروة التي تطرق إليها بوتين قبل نحو عشر سنوات في أطروحته بوصفها جوهر قوة الدولة.

أوكرانيا، التي من خلالها يمر معظم الغاز الروسي، تمثل خناقة محتملة لطموحات بوتين، وكان متأكدًا أنه اليوم يواجه جهودًا متضافرة لإحباط خططه، وعندما ظهر في قصر

ليفاديا بعد محادثاته الخاصة مع كوتشما ويانوكوفيتش، استخدم بوتين مصطلح الـ(كي جي بي) لشبكات العملاء والمخبرين الذين يخونون الدولة بالنيابة عن البلدان التي تسعى إلى تدميرها: أجنتورا. وأضاف أن أجنتورا، سواء داخل بلداننا أو خارجها، تحاول بكل ما هو ممكن تقديم تنازلات التكامل بين روسيا وأوكرانيا[8].

«**انظر** في وجهي»، قال فيكتور يوشينكو عندما عاد إلى كييف في 21 سبتمبر/أيلول من العلاج في المستشفى النمساوي. لم تكن حقيقة مصدر تسميمه قد اتضحت بعد، لكنه ذهب مباشرة إلى البرلمان الأوكراني (رادا العليا)، لاتهام أعداء لم يسمهم بمحاولة إيقاف ترشيحه، وكان ظهوره مثيرًا.

يوشينكو، وهو بنكيٌّ مركزي ساعد على خلق عملة جديدة في البلاد (hryvna)، كان قد شغل منصب رئيس وزراء كوتشما عامين قبل الإطاحة به من قبل أولئك الذين يعارضون رؤيته بتغريب مستقبل أوكرانيا، فهو يؤيد بقوة الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي. وحقيقة أن زوجته كانت أوكرانية-أمريكية من الشتات في شيكاغو، كانت قد أكدت الأسوأ لمنتقديه، ومنهم كوتشما، الذي سمع في التسجيلات السرية صراخًا خشنًا أنها كانت عميلة للسي آي إيه[9] (كما جعل كليهما يتابعان).

وقف يوشينكو على منصة الرادا، واتهم حلفاء كوتشما بالتآمر لقتله: «ما حدث لي لم يكن بسبب الغذاء أو النظام الغذائي الخاص بي، ولكن من قبل النظام السياسي في هذا البلد. نحن لا نتحدث اليوم عن الطعام حرفيًّا، نحن نتحدث عن المطبخ السياسي الأوكراني حيث جرائم القتل على القائمة»[10]. وكانت القسطرة في عموده الفقري مخبأة تحت بدلته، تنبض بالمسكنات لتخفيف الألم الذي يعانيه، وبعد أربعة أيام سافر إلى فيينا لمزيد من العلاج. لم يكن يوشينكو سياسيًّا كاريزميًّا، لكن حملته الانتخابية كانت ممولة جيدًا وذكية، وقد اختار رسالة بسيطة- تاك أو نعم- واعتمد اللون البرتقالي، حتى عمت المدينة الأعلام، واللافتات، والإعلانات. وأسس أيضًا تحالفًا مع يوليا تيموشينكو، القطب القومي الهائل

ومليونيرة الطاقة التي تلاعبت بالنظام السوفييتي المنهار لإثراء نفسها، كما كان ميخائيل خودوركوفسكي في روسيا. كان طموحها مذهلًا، ونتيجة لكونها امرأة في الوسط السياسي الذي يهيمن عليه الرجال، استخدمت دون خجل جاذبيتها دعامةً سياسية، مثل تجديل شعرها على نحو بات كعلامة تجارية. وقد أخذت- في أثناء غياب يوشينكو عن الساحة لتلقي العلاج- على عاتقها متابعة الحملة، فعرضت الاستنكارات لحكم كوتشما، وأثارت احتمال أن يكون يانوكوفيتش ببساطة هو من يوجه دفة البلاد- أقرب من أي وقت مضى- إلى روسيا.

مع اقتراب الانتخابات اكتسبت حملة يوشينكو الزخم، ولا بد أن التقارير الاستخبارية التي وصلت إلى بوتين كل صباح كانت تعزز أسوأ مخاوفه من الشائن الغربي، وتفاصيل الخطة المفصلة لتطويق روسيا، وما كان يحدث في أوكرانيا يجب أن يكون مقدمة لدَفعة نهائية في روسيا نفسها. ويعود الفضل الكبير في هذه المؤامرة إلى الخيال المحموم للمخابرات الروسية، ولكن الولايات المتحدة وألمانيا ودولًا أوروبية أخرى تغذي هذه الحمى عن طريق توفير الأموال للمنظمات في أوكرانيا، التي تعزز الديموقراطية والمجتمع المدني والإصلاح القانوني، وحماية البيئة. ومنذ انهيار الاتحاد السوفييتي كانت هذه المنظمات غير الحكومية (NGOS) تعمل في جميع أنحاء أوروبا الشرقية، وحتى في روسيا، وذلك بهدف مساعدة الدول المستقلة حديثًا على إنجاز الانتقال من نظام الحزب الواحد إلى نظام منفتح من ديموقراطيات التعددية الحزبية؛ في صربيا في عام 2000م، ثم في جورجيا في عام 2003م، وقدمت الدعم للاحتجاجات السياسية السلمية التي أطاحت في نهاية المطاف بالحكومات المتصلبة، وعلى الرغم من أن تمويلها كان متواضعًا، ونادرًا ما يزيد على أكثر من بضعة ملايين من الدولارات أو اليورو لكل منها، فإنها تمثل الـ(أجنتورا) التي يخشاها بوتين.

وتحت ضغط من الكرملين قدمت الشركات الروسية تعهدات نقدية ليانوكوفيتش في اجتماع يالطا ذاك، تقارب 600 مليون دولار، يعتقد فريق يانوكوفيتش أنه صُرف؛ أي ما يعادل 1 في المئة من الناتج المحلي الإجمالي جاء من روسيا[11].

وفي إشارة إلى عمق تورطه الشخصي، جعل بوتين رئيس موظفيه، ديمتري ميدفيديف، المسؤولَ عن العملية السياسية للكرملين في أوكرانيا، فأرسله- وهو الذين كان يدير حملات سوبتشاك وبوتين في الماضي- والمستشارين الثقة، ومن ضمنهم جليب بافلوفسكي وسيرجي ماركوف، إلى أوكرانيا. وفي أغسطس/آب أفردَ ناشطون سياسيون في الكرملين مساحة تسمى (روسيا البيت) في الفندق المركزي في كييف، لتعزيز حسن النية بين روسيا وأوكرانيا، ظاهريًّا، وفي واقع الأمر لإدارة حملة الكرملين نيابة عن يانوكوفيتش، فدبروا حملة من نوع العمليات التي تتميز بها الانتخابات في روسيا: تغطية شاملة دون تمحيص في التلفاز الرسمي لأي مسيرة مهما صغرت من مسيرات ليانوكوفيتش، وشن الهجمات الشرسة على يوشينكو بوصفه وكيلًا للغرب. تصميم مجموعة من الملصقات (البوسترات) التي أنتجها المستشارون ليانوكوفيتش بالشعار البرتقالي ليوشينكو تحت صورة للرئيس بوش راكبًا أوكرانيا مثل رعاة البقر. زوجة يانوكوفيتش، ليودميلا، انبرت في اجتماع حاشد في دونيتسك، قدَّم فيه الأمريكيون لأنصار يوشينكو الأحذية والبرتقال الذي تغلب عليه أسهم من المخدرات؛ ملاحظات أعيد خلطها بأغنية البوب التي قدمت مسارًا لثورة قادمة. بوتين من جانبه، أقحم نفسه مباشرة في الحملة، وأجرى لقاءات مع كوتشما ويانوكوفيتش مرارًا وتكرارًا.

عشية الجولة الأولى من التصويت في 31 أكتوبر/تشرين الأول، سافر إلى كييف في زيارة الدولة التي كانت ظاهريًّا في الذكرى الستين لتحرير الاتحاد السوفييتي لأوكرانيا من النازيين في عام 1944م، وفي الليلة التي سبقت العرض ظهر في الوقت المحدد لرئيس الوزراء على ثلاث قنوات تلفازية حكومية في مقابلة، فتحدث بشهامة وقلق عن القضايا التي تواجه الأوكرانيين، بدءًا باستقلال أوكرانيا وسيادتها، ولكنه جعل فَصْل البلدين الشقيقين من تحالفهما الطبيعي خطأ تاريخيًّا واضحًا[12]، وتواردت كثير من الأسئلة عن طريق البريد الإلكتروني أو الفاكس أو على الهواء مباشرة، تعبر عن أسفها لزوال الاتحاد السوفييتي، وسأل أحدهم بوتين عن خوضه هو لانتخابات الرئاسة في أوكرانيا، فاعترض بوتين؛ فقد

كان من المستحيل إعادة بناء الاتحاد السوفييتي، كما قال، ولكن مستقبل أوكرانيا يكمن في توثيق علاقاتها الاقتصادية مع روسيا. لم يذكر يوشينكو بتاتًا، ولكنه ذكر يانوكوفيتش خمس مرات، وأثنى على حُسن إدارة يانوكوفيتش في رئاسة الوزراء، وكان يتحدث كما لو أنه كان في المنزل، ناضجًا بالسحر والتواضع.

هتف المذيع أن هناك ستَّ مئة مكالمة في كل دقيقة قادمة من خطوط الهاتف، وتلا بوتين- بالأوكرانية- جزءًا من قصيدة لتاراس شيفتشينكو، الشاعر الوطني في أوكرانيا، على الرغم من أنه كان عليه أن يعترف أنه قد يفهم بعض الأوكرانية، إلا أنه لا يتكلمها. وطلب إليه تلميذ يدعى أندريه أن يتصور معه، وقد بدأ بسؤاله: «فلاديمير فلاديميروفيتش، هل تعتقد بالأحلام؟»، وفي اليوم التالي اضطر بوتين أن يظهر قليلًا مع أندريه في مكتب كوتشما، وقدم له حاسبًا محمولًا هدية.

خلال عرض عسكري وقف كوتشما ويانوكوفيتش بجانب بوتين والآلاف من الجنود يمرون من أمامهم بمثل خُطا الإوز، مرتدين الزي الخمري وبمستويات الجيش الأحمر (حاول يانوكوفيتش إعطاء بوتين قطعة من العلكة، مما أدى إلى نظرة اشمئزاز واستغراب من سلوكياته الخشنة)[13]. مع أن العرض كان منظمًا بشفافية، فإن لظهور بوتين صدى عند بعض الأوكرانيين، الذين يحسدون روسيا على مستوى المعيشة المرتفع، أو لديهم ذاك الحنين الذي لدى كثيرين من الروس إلى الحقبة السوفييتية، ولكن أوكرانيا- مع ذلك- كانت أكثر تعددية من روسيا، وديموقراطيتها أقل (إدارة)؛ فمع أن التلفاز الحكومي يخدم السلطة، ويهاجم يوشينكو يوميًّا، ويلمح إلى أن مرضه كان بسبب السوشي أو الزهري، فإن سيطرة كوتشما على وسائل الإعلام لم تكن مطلقة؛ فالقناة 5 التي يملكها رجل أعمال الشوكولاته، بيترو بوروشينكو، رمت بنفسها دون خجل وراء يوشينكو، وأصبحت صوت حملته المعارضة، وهو ما دفع الحكومة إلى محاولة تعليق رخصة بثها ولكن دون جدوى.

كان لتدخل بوتين دور لم يسبق له مثيل في انتخابات بلد آخر، وتلك أيضًا الحجة الرئيسة للمعارضة: إن التصويت ليانوكوفيتش ببساطة هو إعادة البلاد إلى الإمبراطورية التي كانت قد حصلت على استقلالها منها. وإن أحدًا لن يطلب إلى بوتين جديًّا أن يصبح زعيم أوكرانيا، ولم تقدِّر الموالاة السياسية للكرملين ذلك، لأن بوتين لم يفعل ذلك. وأيضًا أخطأ إستراتيجيو بوتين بتقدير درجة المناهضة للأمركة؛ فهي إن كانت فعالة في روسيا فلن يتردد صداها وتكون بالفاعلية نفسها في أوكرانيا.

عندما عقدت الجولة الأولى من الانتخابات في 31 أكتوبر/تشرين الأول، حصل يوشينكو على 39.87 في المئة من الأصوات، متفوقًا على يانوكوفيتش (39.32 في المئة)، مع عشرين مرشحًا أقل شأنًا تقاسموا البقية (20.81 في المئة). وكانت استطلاعات الرأي المدفوع لها من قبل الـ(أجنتورا) الغربي قد أظهرت يوشينكو في المقدمة وبفارق أكبر حتى، ومع انتشار تقارير عن حشو في صناديق الاقتراع وغيره من المخالفات، أراد بعض من في المعارضة، ومن بينهم يوليا تيموشينكو، الاحتجاج في الشوارع، كما كانوا يستعدون لفعل ذلك طوال الصيف. أما يوشينكو- على الرغم من ذلك- فكان راضيًا أن يحتفل بالنتائج القوية على نحو غير متوقع، وتعهد بأنه سوف يسود في جولة الإعادة المقرر إجراؤها في وقت لاحق بعد ثلاثة أسابيع، في 21 نوفمبر/تشرين الثاني. بعد الأداء الباهت ليانوكوفيتش ضاعف بوتين جهوده مع كلا المرشحين، وقد أخذا بمغازلة مرشحي الجولة الأولى الآخرين، ضغط بوتين على الزعيم الشيوعي الروسي غينادي زغانوف كي يستخدم نفوذه مع بترو سيميننكو، المرشح الشيوعي الأوكراني، الذي حصل على 5 في المئة من الأصوات، فوافق زغانوف، لكنه اشترط ثمنًا لذلك: تقديم الكرملين تمويلًا للحزب الشيوعي في روسيا، وإنهاء التغطية السلبية بلا هوادة على التلفاز الرسمي، وقد فعل الكرملين ذلك لبعض الوقت، ولكن هذا التكتيك أخفق؛ لأن سيميننكو أيضًا كان غاضبًا من التصويت، ورأى أنه جُرِّدَ مما يزيد على خمسين ألف صوت شيوعي في الجولة الأولى، وبدلًا من ذلك دعا أعضاء حزبه للتصويت ضد كلا المرشحين في جولة الإعادة[14].

ثم سافر بوتين إلى أوكرانيا في زيارة عمل أخرى، والتقى كوتشما ويانوكوفيتش في شبه جزيرة القرم مرة أخرى لتدشين خدمة العبَّارات المنتظمة بين شبه الجزيرة والبر الروسي، ومعًا سافروا إلى أسفل ساحل القرم إلى مركز الآرتيك الدولي للأطفال، المنتجع السوفييتي الشهير الذي أصبح يستضيف المئات من تلاميذ المدارس الذين نجوا من الهجوم الإرهابي في بيسلان. بقي الناشطون السياسيون في الكرملين، من بينهم ميدفيديف، واثقين من فوز يانوكوفيتش، ويرجع ذلك- جزئيًّا- إلى وجود كوتشما ويانوكوفيتش، وبقي بوتين يضغط على يانوكوفيتش لبذل مزيد من الجهد للإنفاق من موارد الحكومة التي كانت في متناول اليد لزيادة الإقبال، وهي ممارسة كان لها أثرها الكبير في روسيا[15].

للتحضير لجولة الإعادة عزَّز مسؤولو الانتخابات قوائم الناخبين بـ(بالأموات)، بصورة مثيرة للريبة؛ لتضخيم نسبة المشاركة في المناطق الشرقية التي دعمت يانوكوفيتش، وفي دونيتسك قفزت نسبة المشاركة في الجولة الثانية من 20 في المئة تقريبًا إلى 96.7 في المئة، وهو أمر لا يكاد يصدق. وفي يوم جولة الإعادة نُقل الناخبون إلى كييف للتصويت بعد تصويتهم في مناطقهم، وضُبط مئات منهم يفعلون ذلك[16]. كان الاحتيال في حملة يوشينكو متوقعًا، ولكن التلبس به أثار غضبًا منه، وبحلول وقت إغلاق مراكز الاقتراع في تلك الليلة، تدفق أنصاره، وهم يرتدون الملابس البرتقالية ويلوحون بالأعلام البرتقالية، إلى الشوارع المحيطة بالفضاء العام وسط كييف، وميدان الاستقلال، أو ساحة الاستقلال، وكانت الحشود قد تنامت إلى عشرات الآلاف في صباح اليوم التالي، عندما أعلنت لجنة الانتخابات النتائج الأولية التي أظهرت يانوكوفيتش فائزًا بـ 49 في المئة، ويوشينكو بـ 46 في المئة، على الرغم من أن استطلاعات الرأي، المدفوع لها من قبل المنظمات غير الحكومية من الولايات المتحدة وأوروبا، أظهرت فوز الأخير بفارق 11 نقطة.

أثار مراقبو الانتخابات الدوليون على الفور أسئلة حول سير الانتخابات والفرز، لكن بوتين، الذي قضى الأيام الثلاثة الماضية في أمريكا اللاتينية لحضور قمة التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادي، اتصل على الفور من البرازيل لتهنئة يانوكوفيتش.

وأقام أنصار يوشينكو خيامًا لهم في ميدان المدينة، وتعهدوا بالبقاء حتى إلغاء نتيجة الانتخابات، وقد عبَّر الجميع عن غضبهم بسبب الغش، وكان المزاج العام للحشد احتفاليًّا، وحضر موسيقيو البوب وأدَّوا مقطوعات بين خطابات يوشينكو وأنصاره. كان مستشارو كوتشما في حالة من الفوضى، منقسمين حول ما يجب فعله، وبدا الصحفيون على شبكات التلفاز الرسمي ثائرين، حتى مترجم الصم والبكم، الذي تجاهل النص الرسمي للمذيع على القناة الحكومية الرئيسة وبدأ يسرد الحقيقة: «وزورت النتائج التي أعلنتها لجنة الانتخابات المركزية»، إنها وقعت، «لا نصدقهم».

ولما لم تتخذ حكومة كوتشما أي تحرك فوري لإزالة المحتجين، فقد انهال مزيد من الناس إلى الميدان، لا النشطاء السياسيون فقط، بل الناس العاديون، حتى الآباء والأمهات، الذين أخذوا أطفالهم ليشهدوا أن ما شعروا به كان لحظة تاريخية في تاريخ أوكرانيا الشاب. وفجأة أصبح الأمر أكثر من مجرد مشاعر فياضة لدعم يوشينكو، بل لجميع المشكلات في البلاد، والتي باتت الموروثات السوفييتية معوقة لها؛ فالأوكرانيون- على عكس الروس- كانوا على استعداد للنزول إلى الشوارع للمطالبة بالنزاهة والعدالة والمساءلة من جانب زعمائهم.

في 23 نوفمبر/تشرين الثاني، أقسم يوشينكو اليمين رمزيًّا لمنصبه، معلنًا نفسه الفائز في جلسة لم يكتمل بها النصاب القانوني في البرلمان، حتى لا تعلن لجنة الانتخابات أن يانوكوفيتش هو الفائز الرسمي بعد الفرز النهائي في اليوم التالي. وأرسل بوتين تهنئة مرة أخرى، وهذه المرة في رسالة إلى يانوكوفيتش، قائلًا إن الأوكرانيين قدموا «خيارًا للاستقرار». ولكن الحشود ازدادت أكثر فأكثر، محاصرة مبنى البرلمان والرئاسة في بحر من اللون البرتقالي، وكان هذا أسوأ كابوس لبوتين.

سافر بوتين من أمريكا الجنوبية إلى بروكسل لحضور اجتماع مع قادة الاتحاد الأوروبي، ومعظمهم كان قد رفض الاعتراف بنتائج الانتخابات في أوكرانيا، ودعا إلى التحقيق في الغش بدلًا من ذلك؛ ومن ثم فالشراكة الودودة التي كان بوتين يأمل في تطويرها مع

الأوروبيين- واعدًا بتوسيع التعاون في مجال الطاقة، والأمن، والتجارة، والسفر- باتت الآن متكلفة على نحو متزايد، وأوكرانيا كسرتها كلها. قال: «أنا واثق بأنه ليس لدينا مزيد من الحق في التحريض على اضطرابات جماهيرية في دولة أوروبية كبرى»، قال بوتين ذلك بعد لقاء خاص متوتر مع القادة الأوروبيين، وكان يتهمهم بتشجيع الناس الذين احتشدوا في شوارع كييف؛ «يجب علينا ألا نجعل من الممارسات الدولية حلًّا لنزاعات من هذا النوع من خلال أعمال الشغب في الشوارع». إصرار بوتين بأن النتيجة كانت (واضحة تمامًا) ترك روسيا دون إستراتيجية بديلة، والكرملين جاهد لمواكبة وتيرة الأحداث، وإذ استشعر البرلمان الأوكراني المد في التحول السياسي لمصلحة يوشينكو، صوَّت على إعلان أن نتائج الانتخابات غير صحيحة.

أفراد من قوات الأمن في أوكرانيا، من بينهم ورثة سرِّية الـ(كي جي بي)، بدؤوا بالانشقاق والوقوف إلى جانب المحتجين، حتى إيجور سميشكو، الجنرال الذي كان قد حضر قبل شهرين عشاء الليلة السابقة الذي تسبب بتشويه يوشينكو، تحول اليوم أيضًا ضد معسكر يانوكوفيتش، محذرًا من أن قوات وزارة الداخلية في البلاد ستقاوم أي أمر للقضاء. وكان بوتين قد ضغط على كوتشما لمقاومة قوة الدفع نحو حل وسط، ملمحًا بقوة إلى أنه يجب التعامل بشدة مع أي احتجاج جماعي. «بوتين رجل قاسٍ»، قال كوتشما في وقت لاحق، «لم يكن يقول مباشرة: ضع الدبابات في الشوارع؛ فقد كان لبقًا في تصريحاته، ولكن كان هناك بعض التلميحات بها»[17].

تراجع يانوكوفيتش إلى دونيتسك، مسقط رأسه، لحضور مؤتمر القادة السياسيين للمناطق الشرقية التي ظلت موالية له ولروسيا: دونيتسك، وهانسك، وخاركيف، وكان اللقاء في حلبة للتزلج على الجليد في سيفيرودونيتسك، وصوَّت فيه الكونغرس بالإجماع على إعلان مناطقهم مستقلة إذا استمرت الفوضى في كييف، ثم انتقل المجلس الإقليمي حتى للتصويت على الحكم الذاتي في الأسبوع التالي. حضر يوري لوجكوف، رئيس بلدية موسكو، في خطوة

بدا أنها لإيصال تأييد الكرملين لدعوات الانفصال، وندد زعماء المعارضة بأنه (سبت الساحرات) متظاهرين أنهم «يمثلون كل الأمة».

دونباس، كما كانت تعرف بقلب المنطقة الصناعية في أوكرانيا، ستكون منفصلة قبل الموافقة على أي حل وسط لتثبيت يوشينكو. وفي ليلة 2 ديسمبر/كانون الأول، استدعى بوتين كوتشما إلى موسكو، والتقيا في صالة كبار الشخصيات في مطار فنوكوفو حين كان بوتين يستعد للمغادرة في زيارة رسمية إلى الهند. وفي أوكرانيا واصل البرلمان مناقشة آليات عقد انتخابات جديدة، في حين سمعت أعلى محكمة في البلاد حجج يوشينكو لإبطال النتائج الأخيرة. أيَّد بوتين حينها دعوة كوتشما لانتخابات جديدة تمامًا بوصف ذلك أفضل فرصة لتجنب فوز يوشينكو، وقال: إن «إعادة الجولة الثانية قد تنتج أيضًا لا شيء. ماذا يحدث بعد ذلك؟ هل يجب أن تكون هناك انتخابات جولة ثالثة ورابعة وخامسة وعشرين...؟ حتى يحصل واحد من الجانبين على النتيجة اللازمة»[18].

في اليوم التالي، بعد أسبوع من جلسات الاستماع التي بُثَّت في جميع أنحاء البلاد، تدخلت أعلى محكمة في أوكرانيا من أجل جولة الإعادة لانتخابات جديدة، قائلة إن الجولة الثانية قد «شابتها انتهاكات منهجية واسعة النطاق»، وإنه كان من المستحيل تحديد من الذي فاز حقًّا. كان ذلك نصرًا لا شك فيه ليوشينكو، فاندلعت وسط كييف الاحتفالات، وكان لبوتين هزيمة ساحقة.

بعد ثلاثة أسابيع عقدت انتخابات الإعادة المكررة، وبين حكم المحكمة والتصويت، كان أطباء يوشينكو في النمسا قد توصلوا إلى النتيجة النهائية أنه كان قد تسمم من خلال الديوكسين، ومن ثم فقد بدت الاتهامات بأن مرض يوشينكو كان مجرد حيلة لاستغلال بعض الأمراض الأخرى لكسب تعاطف الناخبين، اتهامات تدعو إلى السخرية، وتبين أنه ناجم عن مؤامرة مظلمة من قبل نظام موغل بالفساد وعلى استعداد لأن ينحدر إلى التسميم لعرقلة مرشح. عندما عقدت جولة الإعادة الثانية، في ظل أكبر عملية تدقيق دولية، فاز يوشينكو بما

يقارب 52 في المئة من الأصوات، وتراجع يانوكوفيتش حاصلًا على 44 في المئة، وعلى الرغم من التحقيق فمسألة من الذي اضطلع بعملية التسميم بقيت دون جواب. ويوشينكو نفسه لم يُبدِ كبير حماس للتحقيق، على الرغم من التشوه المروع الذي وقع له[19]، ليقول في وقت لاحق إنه يشتبه في مضيفه، فلاديمير ساتسيوك، وقد خضع لاستجواب المحققين عندما كان يوشينكو في منصبه، وفُحص بيته الريفي لاختبار آثار الديوكسين، لكن لم يعلن قط كونه متهمًا[20]، وفي يونيو/حزيران 2005م غادر أوكرانيا إلى روسيا، حيث حصل على الجنسية الروسية، ومن ثم فقد انتهى يوشينكو إلى الاعتقاد بأن بوتين يؤوي من كان سيكون قاتله.

الثورة البرتقالية، كما أصبحت تُعرَف، كان يُنظر إليها في روسيا على أنها هزيمة مذلة، وفي الكرملين بمنزلة تحذير لا تحمد عقباه؛ فقد خذلت بوتين التكتيكي في صراع جيوسياسي، وأخذ يطبب جراح تجربة له مثل ضغينة. وكان رد فعل الكرملين بتكثيف الضغط عليه من المنظمات غير الحكومية في روسيا، ومن خلال مضاعفة البحث عن الجواسيس الأجانب، ومن خلال خلق حركة شبابية خاصة لاحتواء أي مظهر من مظاهر المعارضة الشبابية؛ وكان يطلق عليها ناشي (Nashi)، وأيديولوجيتها وممارساتها شبيهة إلى حد بعيد بتلك التي تدعى الكومسومول في الاتحاد السوفييتي، أو حتى- من وجهة نظر النقاد- بشباب هتلر. تصرُّف بوتين بقي دفاعيًّا على نحو متزايد، ومشبوهًا على نحو متزايد أيضًا، أمام التوبيخ الدولي لسجل روسيا في مجال الحقوق الديموقراطية الأساسية، وقد كان ينظر إليهم على أنهم منافقون؛ خصوصًا ممن كان في الولايات المتحدة، الذين كانوا في ظل الرئيس بوش وينتهجون سياسة خارجية شديدة العدوانية أطاحت بالحكومات في أفغانستان والعراق، والآن- كما يعتقد- في أوكرانيا. كانت له علاقات دافئة في البداية مع بوش لكنها بردت، أو كانت على وشك البرود، فبعد مدة وجيزة من تنصيب بوش في ولايته الثانية في يناير/كانون الثاني عام 2005م، التقيا في براتسلافا، عاصمة سلوفاكيا، وكان بوش قد ألقى خطابًا في صباح ذلك اليوم في ساحة هفيزدوسلاف في المدينة، قبل ساعات فقط من توجه بوتين بالطائرة إلى المدينة. لقد عمل من أجل النهوض بالديموقراطية- (أجندة

الحرية)، كما أطلق عليها- وهو الموضوع الرئيس لولايته الثانية، والآن هلل للانتفاضات الشعبية في جورجيا وأوكرانيا، والانتخابات الأخيرة في العراق، وقال إنها كانت جزءًا من المسيرة الحتمية للديموقراطية التي بدأت مع الثورة المخملية في ذلك الحين، ومن ثم في تشيكوسلوفاكيا الموحدة في عام 1989م، ولم يذكر روسيا، لكنه أعلن أن «نداء الحرية- في نهاية المطاف- سيصل إلى كل عقل وكل روح. وذات يوم، سوف تصل وعود الحرية إلى كل شعب وكل أمة».

في سلوفاكيا كان يرافق الرئيسين زوجتاهما، اللتان ظهرتا معهما بصورة رسمية في أثناء تساقط الثلوج على مدخل قلعة براتسلافا. وبعد الشاي، انضمت ليودميلا، التي تضاءلت نشاطاتها العامة بصورة ملحوظة بعد إعادة انتخاب بوتين في العام قبل الماضي، إلى لورا بوش في جولة على المطرزات في قصر بريماسيال في قلب المدينة القديمة، واستمَعَتا معًا إلى جوقة الأولاد يغنون بالروسية والإنجليزية[21]. وعندما التقى الرجلان داخل القلعة- مع ذلك- أسقط بوتين أي تظاهر بالصداقة وأي طلاقة وجه، وعندما أثار بوش قلقه إزاء اعتقال ميخائيل خودوركوفسكي، وتضييق الخناق على وسائل الإعلام، و«عدم إحراز تقدم» في الديموقراطية، شن بوتين هجومًا مضادًّا، وقارن قراره بإنهاء انتخابات الحكام الإقليميين، بعد بيسلان، باستخدام المجمع الانتخابي في الانتخابات الرئاسية الأمريكية، وأن محاكمة خودوركوفسكي لا تختلف عن ملاحقة شركة إنرون للطاقة في تكساس التي أفلست في عام 2001م. واستمرا ساعتين تقريبًا، وقد بدت لهجة بوتين ساخرة وأقرب إلى الاستهزاء، فغضب بوش من هذه الاستفزازات، حتى إنه تصور أن يصل إلى أكثر من (صفعة إهانة) له، حسب المترجم[22]. فقد سخر بوتين من بوش في أثناء الحديث قائلًا: «لا تحاضر لي عن حرية الصحافة، إلا بعد أن تقيل ذاك المراسل»، انتابت بوش الحيرة للحظات؛ ثم أدرك أن بوتين يعني الفضيحة التي انتشرت على ضوء التقارير التي كتبها دان راذر لشبكة سي بي إس عن خدمة بوش في الحرس الوطني الجوي، والتي استند فيها إلى وثائق لم يمكن التأكد من صحتها، فكان عليه أن يعتذر، واضطر إلى التقاعد، واليوم بوتين يستشهد به

متهمًا بوش بقمع حرية الصحافة، فقال له بوش: «أقترح عليك ألا تقولها علنًا أمام الجمهور؛ فالشعب الأمريكي سوف يعتقد أنك لا تفهم نظامنا»[23].

في وقت لاحق، كشف مؤتمرهم الصحفي المشترك أن خلافاتهما لم يعد ممكنًا التستر عليها وفق ما تفرضه الدبلوماسية، وكرر بوتين تأكيده أن المجمع الانتخابي هو بالأساس ممارسة غير ديموقراطية. الصحفي الروسي الذي اختاره الكرملين وقتها أثار قضية أن بوتين وبوش تناقشا شرًّا فقط، وسأله لماذا لم يثر علنًا انتهاك الحقوق في الولايات المتحدة (قال بوش وهو يفكر: «يا لها من مصادفة!»). الشراكة التي تصورها بوش عندما نظر إلى عيني بوتين قبل أربع سنوات قد فُقدت، وفيما بعد كتبت كوندوليزا رايس، التي تشغل اليوم وزيرة خارجية بوش: «علينا أن نراها قادمة، ولكن بوتين هذا يختلف عن الرجل الذي اجتمعنا به أول مرة في سلوفينيا»[24].

أثبتت انتخابات أوكرانيا، التي جاءت في أعقاب بيسلان، أنها نقطة تحول بالنسبة إلى بوتين وروسيا، ففكرته الأولية بإقامة تعاون أوثق بين روسيا والغرب، إن لم يكن تحالفًا فعليًّا، تلاشت باطراد مع ازدياد سلطته السياسية والاقتصادية. وعندما ألقى خطابه السنوي أمام مجلس الدوما والمجلس الاتحادي في أبريل/نيسان، دعا إلى وحدة وطنية جديدة ضد هؤلاء الذين يريدون تحدي الدولة، سواء داخل روسيا أو خارجها، وبدأ بديباجة أن البلاد بحاجة إلى تأمل «أعمق في هذه القيم؛ مثل الحرية والديموقراطية والعدالة والشرعية»، وواصل متفوهًا بجملة أكدت لكثيرين الميول السيئة التي يبطنها بوتين؛ ألا وهي الحنين لمجد الاتحاد السوفييتي الذي لا يزال عالقًا فيه؛ قال: «أولًا وقبل كل شيء، يجب الاعتراف بأن انهيار الاتحاد السوفييتي كان أكبر كارثة جيوسياسية في القرن، وأصبح للشعب الروسي دراما حقيقية، فعشرات الملايين من مواطنينا وجدوا أنفسهم خارج الأراضي الروسية. وطاعون التفكيك طال روسيا نفسها».

لم يكن بوتين يرغب في استعادة النظام السوفييتي أو الشيوعي، بل ولا يرغب في ذلك، وأي شخص يريد عودته- كما قال- فلا عقل له، لكن لأول مرة بدأ يعرض قيادته في سياق تاريخي أوسع؛ كان يعتزم استعادة شيء أكبر، وأكثر ثراء وعمقًا: فكرة الأمة الروسية، فإمبرياليو (روما الثالثة) رسموا مسارها الخاص، غير مبالين بفرض القيم الأجنبية، فمن ثم كانت فكرةً روسية قديمة، وجد في كتب التاريخ نموذجًا لها يقال إنه كان معجبًا بها.

ما لوحظ في ذلك الوقت من رثاء بوتين لـ(كارثة) انهيار الاتحاد السوفييتي أنه كان أقل بكثير من إشارته إلى إيفان إيلين، الفيلسوف الديني والسياسي الذي اعتقل مرارًا من قبل البلاشفة، ثم طُرد في عام 1922م.

قدمت أفكار إيلين الأساس الفكري المتطور لفهم بوتين لإحياء روسيا، وسوف تصبح أكثر وضوحًا في المناقشات السياسية اللاحقة. إيلين، الروسي الأبيض في المنفى، اعتنق رؤية الهوية الروسية الأرثوذكسية التي كان النظام الشيوعي العلماني عازمًا على تدميرها، وقد وجد بوتين في كتاباته كثيرًا مما يمكن أن يدعم فكرة الدولة التي أراد خلقها، وحتى مفهوم (الديموقراطية السيادية). بوتين لم يَرِثْ زوال النظام السوفييتي، وإنما زوال الفكرة الروسية التاريخية؛ قال: «دعونا لا ننسى هذا»، وهذه هي المرة الأولى التي يقتبس فيها بوتين من إيلين، الذي بدأت كتاباته تنتشر علنًا في روسيا بعد البيروسترويكا. «روسيا هي البلد التي اختارت الديموقراطية من خلال إرادة شعبها، اختارت هذا الطريق من تلقاء نفسها، وسوف تقرر بنفسها أفضل السبل لضمان تحقيق مبادئ الحرية والديموقراطية هنا، مع الأخذ بالحسبان خصوصياتها التاريخية والجغرافية والسياسية، وتحترم جميع المعايير الديموقراطية الأساسية. وبصفتها دولة ذات سيادة يمكن أن تقرر روسيا، وسوف تقرر، الإطار الزمني لها، وشروط التقدم على هذا الطريق».

إشارة بوتين إلى هذا الفيلسوف غير المعروف كثيرًا خارج روسيا، أو حتى داخلها، تزامنت مع إعادة رفاته، إضافة إلى الجنرال أنطون دينيكين، القائد القيصري للطرف

الخاسر من الحرب الأهلية؛ فقد دُفن إيلين في سويسرا، ودُفن دينيكين في الولايات المتحدة، لكن بوتين دعم حملة لإعادة دفنهما في وطنهم في دير دونسكوي في موسكو[25]، وقيل إنه قد دفع شخصيًّا ثمن شاهد قبر إيلين الجديد. كل هذا أدى إلى تجدد الاهتمام بأعمال هذا الرجل، فسارعت وكالة الاستخبارات المركزية لإعداد دراسة وتحليل لدوره في تفكير بوتين، وما قد ينذر في المستقبل.

قدَّم الأرثوذكسي إيلين الوطنية، والقانون، والملكية الخاصة، على أنها مرتكزات الدولة، وكتب عن المنفى في عهد ستالين، والحرب الوطنية العظمى، ونعى أبطال الحرب الأهلية، مبديًا التبجيل لهم، والرومانسية التي ترددت أصداؤها في روسيا الجديدة. وقد استطاع بوتين أن يجد كثيرًا مما يحبه في كلمات إيلين؛ «البطل يحمل عبء أمته، عبء مصائبها، عبء نضالها، عبء سعيها، وبتحمله هذه الأعباء فإنه ينتصر؛ ينتصر بهذه الأشياء وحدها، راسمًا للجميع طريقًا للخلاص، وفوزه يصبح نموذجًا ومنارة، وإنجازًا ودعوة، ومصدرًا للنصر، وبداية انتصار لكل من هم على تواصل معه في شيء واحد هو حب الوطن. لهذا السبب يبقى لشعبه المصدرَ الحي للابتهاج والفرح، ويبقى ذكر اسمه كأنه انتصار»[26].

في 9 مايو/أيار 2005م احتفل الكرملين بالذكرى الستين للانتصار في الحرب الوطنية العظمى بحفل كانت نفقاته أكبر من أي وقت مضى، وتضمنت الخطط الضخمة عشرات الاحتفالات والحفلات الموسيقية، وعرضًا عسكريًّا في الساحة الحمراء، وهو تقليد استأنفه بوتين بعد سنوات؛ إذ أهمل يلتسين الأعياد والتقاليد السوفييتية. حضر العرض سبعة وخمسون من كبار الشخصيات، ومن بينهم قادة الدول المنتصرة والمهزومة بالحرب؛ من جورج بوش إلى جيرهارد شرودر، وسيلفيو برلسكوني، وجونيشيرو كويزومي. بالنسبة إلى بوتين أصبحت الحرب المفتاح الرئيس لنزعته القومية الجديدة، وهي النزعة التي تكونت من كثير من الذكريات لديه، ومن الاستماع إلى قصص والده. كانت مقاربة الاحتفال بالذكرى السنوية قد أنعشت المناقشات عن مدى القهر السوفييتي لأوروبا الشرقية والوسطى بعد الحرب، ولكن بوتين رفض دعوة روسيا لتفسير الجوانب الأكثر قتامة في الماضي السوفييتي،

والأكثر خزيًا اتفاق مولوتوف-ريبنتروب مع ألمانيا النازية في عام 1939م، الذي أدى إلى الاحتلال السوفييتي لجزء من بولندا في تلك السنة، ودول البلطيق في العام التالي، وقد رفض رؤساء ليتوانيا وأستونيا الحضور نتيجة لذلك. حضور رئيس لاتفيا، فيرا فايك - فريبيرجا، أشعل احتجاجات صاخبة لنشطاء ناشي خارج سفارة بلاده في موسكو، وقد وُبِّخ ألكسندر كفاشنيفسكي جهارًا لدوره في محادثات الوساطة خلال الانتخابات في أوكرانيا، وأُرجع إلى الصف الخلفي في منصة المشاهدة التي تغطي ضريح لينين[27].

بوتين لم يغفر لستالين إخفاقه في أثناء الحرب- وكذلك تواطؤه مع هتلر قبل الحرب، والذبح غير المفيد لجنود عاديين، والمسيرة المضادة إلى برلين- أكثر مما غفر لأصحاب الدعاية السوفييت. كانت الحرب الأيديولوجية الجديدة لبوتين هي تلك التي كانت في شبابه، قال: هي الحرب المشرفة والعادلة التي لا تشوبها شائبة ولا نشعر بالذنب تجاهها، «معارك موسكو وستالينغراد، وشجاعة لينينجراد المحاصرة، ونجاحات كورسك ودنيبر هي التي قررت نتائج الحرب الوطنية العظمى. ومن خلال تحرير أوروبا ومعركة برلين أوصل الجيش الأحمر الحربَ إلى نهايتها منتصرًا. أصدقائي الأعزاء! نحن لم نتقاسم النصر لنا ولهم في بلدنا قط»، وأشار إلى أن «التضحيات المشتركة» وحدت جمهوريات الاتحاد السوفييتي الخمس عشرة، وهي اليوم دول مستقلة لها مسارات خاصة بها، كما هو حال دول البلطيق، وجورجيا، وأوكرانيا التي أحبطت بوتين كثيرًا. ووصف التصالح بين ألمانيا وروسيا بأنه يجب أن يكون نموذجًا للعلاقات الدولية في القرن الحادي والعشرين. وليس بعيدًا عن الكرملين، احتفى متحف بوشكين بالذكرى الستين بعرض 552 من الأعمال الفنية القديمة، من بينها برونزيات يونانية، وأرقام أترورية، وأجزاء من لوحات جدارية رومانية استولى عليها الاتحاد السوفييتي من مخبأ في برلين وترفض روسيا حتى الآن إعادتها[28].